اللجوء السياسى فى الشرق اللاتينى

(١١١٣-١١٩٢م/٥٠٧-٥٨٨هـ)

دكتور/ محمد محمد عبد الحميد فرحات

أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد

كلية التربية بالعريش - جامعة قناة السويس

اللجوء السياسى فى الشرق اللاتينى
(١١١٣- ١١٩٢م/٥٠٧-٥٨٨ هـ) (*)

يعــد نشوب الصراعات والحروب بين الدول بعضها بعضًا من أهم أسباب ظهــور ما يطلق عليه مشكلة اللاجئين، حيث تضطر أعداد غفيرة من السكان إلى تــرك ديارهم وأوطانهم إما طوعًا أو كرهًا، وتنزح إلى مناطق أخرى تلتمس فيها الأمــن وتشــعر فيها بالاطمئنان على حياتها ومستقبلها. وتعد الحروب الصليبية - بطبيعة الحال- نموذجًا حيًا لتلك المشكلة؛ فما كادت أقدام الصليبيين تطأ بلاد الشام حتى أخذت موجات من اللاجئين المسلمين تتدفق على المناطق المجاورة هربًا من بطش الصليبيين ووحشيتهم. كما اضطرت أعداد غفيرة من المسيحيين المحليين من ســريان وأرمــن ويعاقبة إلى هجر مدنهم وقراهم تحت وطأة الهجمات التى شنها المســلمون علــى المناطق التى كانوا يقيمون بها خاصة فى إمارة الرها الصليبية، واللجــوء إلى مناطق أكثر أمنًا وسلامًا، وبعد انتصار المسلمين فى معركة حطين ١١٨٧م/ ٥٨٣هـــ اضطرت أعداد كبيرة من صليبى مملكة بيت المقدس إلى ترك مدنهم التى كانوا يقيمون بها واللجوء إلى مدينة صور التماسًا للأمن والسلام، وغير ذلك من نماذج اللجوء التى اتسمت بها فترة الحروب الصليبية.

هذا وقد ظهرت بعض الدراسات الحديثة التى تناولت بالشرح والتحليل تلك المشكلة منها : "أحوال المسلمين فى بيت المقدس ١٠٩٩ - ١١٨٧م/ ٤٩٢ - ٥٨٣ هــ" (١) "واللاجئون السوريون - الفلسطينيون فى زمن الحملات الصليبية" (٢) .

(*) الدكتور / محمد محمد عبد الحميد فرحات - أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد - كلية التربية بالعريش - جامعة قناة السويس

(١) محمد فتحى الشاعر: أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩- ١١٨٧م/ ٤٩٢- ٥٨٣هـ ،الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م.

(2) S. Emmanuel, Refugie's Syro- Palestiniens au temps des Croisades in (Revue des études Islamiquesl), XXXV, Paris, 1967.

ولـم يكن هذا النوع من اللجوء هو الذى تميز به عصر الحروب الصليبية فحسـب، بـل كـان هـناك نوع أخر ظهر فى الشرق اللاتينى ونعنى به اللجوء السياسـى. وسوف تُسلِّط هذه الدراسة الأضواء على نماذج مختلفة من هذا اللجوء إبـان الفترة موضوع البحث موضحة أسبابه والدوافع التى حدت بالدولة المستقبلة للاجئـين إلـى قبولهم على أراضيها، وموقف الدول التى خرج منها اللاجئون من الـدول التى استقبلتهم من جهة ومن اللاجئين أنفسهم من جهة أخرى. وأخيرًا لمحة عن نشاط هؤلاء اللاجئين فى مواطنهم الجديدة وكيف كان مصيرهم؟

ومـن الجدير بالذكر أن تحديد بداية الدراسة بعام ١١١٣م/ ٥٠٧ هـ جاء نتـيجة أن المصادر المتاحة لم تشر إلى نماذج من اللجوء السياسى وقعت قبل هذا الـتاريخ، ولعـل هذا أمر طبيعى على اعتبار أن الصليبيين لم تمض على إقامتهم بالمـنطقة فترة طويلة من الزمن حتى يمكن أن تظهر مسببات لهذا اللجوء خاصة أنهـم كانـوا منهمكـين فى توسيع ممتلكاتهم وإقامة إماراتهم اللاتينية على حساب المسـلمين، فـى حـين تعد نهاية الحملة الصليبية الثالثة ١١٩٢م/ ٥٨٨ هـ حدثًا تاريخيًا مميزًا يمكن الوقوف عليه كنهاية لهذه الدراسة.

ولـم يكـن اللجوء السياسى فى منطقة الشرق اللاتينى محصورًا فيما بين المسـلمين والصـليبيين فحسب، وإنما تعداه إلى لجوء البيزنطيين وغيرهم لكل من الصـليبيين والمسـلمين علـى حد سواء. وحرى بنا قبل الخوض فى تفاصيل تلك الدراسة أن نوضح فى البداية ما المقصود بالملجأ؟ ومن هو اللاجئ؟

يقصـد بالملجأ فى اللغة أحد معنيين، إما المكان الذى يحتمى به الخائف من خطر يتهدده، وإما الحماية ذاتها التى يوفرها مكان معين للشخص الذى يعتصم به [٣]. أما فى الاصطلاح فيقصد بالملجأ -بصفة عامة- معنى واحد يدور بشكل أو بآخر حول

---

(٣) ابن منظور: لسان العرب، ج٥، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧م، مادة لجأ، محمد الغنيمى: الوسيط فى قانون السلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢م، ص٤١٥.

الحماية ذات الطابع المؤقت التى تمنحها الدولة فى مواجهة أعمال دولة أخرى لأحد الأجانب الذين تتوافر فيهم شروط خاصة وجاء يطلبها فى إقليم تلك الدولة [٤].

فـــى حـــين يُعـــد تحديد تعريف اللاجئ من الأمور الصعبة حيث لم تشر المصادر المعاصرة من عربية وغربية إلى تعريف محدد له، كما أن القانون الدولى الحـــديث هو الآخر لم يضع تعريفًا محددًا له [٥] ، ومع ذلك فلابد أن يكون اللاجئ أجنبـــيًا بالنســـبة لدولة الملجأ، أى ليس من رعاياها، وأن تتوافر فيه شروط خاصة تميـــزه عـــن غيـــره من الأجانب العاديين من تجار وحجاج وعابرين ومهاجرين وغيـــرهم. فاللاجـــئ هو الشخص الذى يوجد خارج حدود دولة جنسيته أو خارج حـــدود الدولـــة التى كانت فيها إقامته المعتادة ولا يستطيع أو لا يرغب فى التمتع بحماية هذه الدولة نتيجة لخوف مبنى على أسباب معقولة مثل التعرض للاضطهاد داخل هذه الدولة [٦] ، أو أنه الشخص الذى يضطر إلى ترك بلده بسبب الخوف على حـــياته أو حـــريته من التعرض للخطر، وقد تبرر هروبه أسباب سياسية [٧] ، وقد عـــرفه آخرون بأنه الشخص الذى يغادر بلد إقامته بسبب أحداث سياسية من شأنها تعريضـــه للاضـــطهاد أو يصـــاحبها اضطهاد أو تهديد له[٨] .وقد أخذت الدراسة

---

[٤] محمد شوقى عبد العال: حقوق اللاجىء طبقًا لمواثيق الأمم المتحدة؛ "أعمال ندوة الحماية الدولية للاجئين"، مطبعة مركز حقوق الإنسان، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٤٠؛ حازم حسن جمعة: مفهوم اللاجئين فى المعاهدات الدولية والإقليمية، "أعمال ندوة الحماية الدولية للاجئين"، مطبعة مركز حقوق الإنسان، القاهرة، ١٩٩٧م، ص١٥.

[٥] محمد شوقى عبد العال: المرجع السابق، ص٣٥.

[6] Budislav Vukas, International Instruments Dealing with The Status of Stateles, Persons and Refugees, (Revue Belge de Droit international), Vol. 8, No. 1, 1972, pp. 146- 48; Sudruddin Agakhan, Legal Problems Relating to Refugees and Displased Persons, ed. (R. C.), Vol. 149, 1976, p. 314.

[7] Van Heuven Goedhart, The Problem of Refugees, ed. (R. C.) Vol. 1, 1953, p. 269.

[٨] حمدى الغنيمى: الملجأ فى القانون الدولى، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٦، ص٣- ٧.

بالتعريف الأخير واعتمدت عليه.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن نماذج من اللجوء السياسى فنستهلها بالحديث عن الأمير جوسلين أوف كورتناى -Jocelyn of Courtenay- الذى وصل إلى الشرق اللاتينى رفق الحملة الصليبية عام ١١٠١م / ٤٩٥هـ[٩] ونظرًا لأنه كان لا يملك من حطام الدنيا شيئًا فقد لجأ إلى قريبه وابن عمته بلدوين أوف بورج Boldwin of Borge أمير رها (١١٠٠/ ١١١٨م/ ٤٩٤- ٥١٢ هـ) الذى أنعم عليه بحكم منطقة تل باشر وأعالى الفرات[١٠] وقد أظهر جوسلين من الكفاءة والمقدرة ما جعل بلدوين أوف بورج يثق به ويتخذه سنده الأول، وظلت العلاقات طيبة بين الرجلين إلى أن انفصمت عُراها فى عام ١١١٣م / ٥٠٧ هـ[١١].

أما عن أسباب توتر العلاقات بين الرجلين وتدهورها فتشير المصادر إلى تعرض إمارة الرها لغارات عنيفة وقوية على أيدى الأمير شرف الدين مودود أمير

---

[٩] جوسلين أوف كورتناى هو أحد النبلاء الفرنسيين المشهود لهم بالحكمة والشجاعة، جاء إلى الشرق برفقة حملة ١١٠١م- ٤٩٥هـ. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وكيفية وصوله إلى الشرق راجع:

Albert d'Aix, Historia Hierosolymitana, ed. (R.H.C., H. Occ), T. IV, Paris, 1879, pp. 265- 713, p. 582; William of Tyre, A History of Deeds Done Beyoned The Sea, Tr. Babcock and Krey, 2 Vols., New York, 1943, Vol. 1, pp. 550- 51; Matthieu d'Edesse, Extraits de la Chronique de Matthieu d'Edesse, ed. (R.H.C., Doc.Arm,) T. I, Paris, 1869, pp. 1- 150, p. 125.

[١٠] تقع تل باشر على بعد حوالى ثلاثة وتسعين كيلو متر شمالى حلب وهى حصن منيع ذات مياه وبساتين. انظر:

- القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، ١٤ج، القاهرة ١٩١٣- ١٩٢٠، ج٤، ص١٢٧.

[11] William of Tyre, Op. Cit., Vol. 1, pp. 498- 99.
انظر أيضًا: سعيد عاشور: الحركة الصليبية، ٢ج، القاهرة ١٩٨٢، ج١، ص٤٣٩

الموصـــل (١١٠٨ - ١١١٣م/ ٥٠٢ - ٥٠٧ هـــ) [١٢] أدت إلـــى إلحاق أضرار جســـيمة بها خاصة فى الناحية الاقتصادية حتى أشرفت الإمارة على المجاعة فى الفترة ١١١٠ - ١١١٢ م/ ٥٠٤ - ٥٠٦هـ [١٣] . واتهم بلدوين أوف بورج تابعه جوســـلين أوف كورتناى -الذى لم تتعرض ممتلكاته لنفس الأضرار التى تعرضت لهـــا الـــرها- بالتقصير والتقاعس عن تقديم العون اللازم له وعدم إمداد الرها بما تحـــتاج إليه فى وقت محنتها [١٤] ، وزاد الطين بلة أن الرُسل الذين أرسلهم بلدوين أوف بـــورج إلى أنطاكية مروا فى ذهابهم وإيابهم بتل باشر حيث استقبلهم جوسلين أوف كورتناى بالترحاب وأحسن وفادتهم، إلا أن بعض تابعيه عندما انفردوا بهؤلاء الرسل تهكموا على الأمير بلدوين أوف بورج وعلى ما وصلت إليه إمارة الرها من ضـــعف وفقـــر مقارنـــة بمـــا ترفل فيه ممتلكات سيدهم جوسلين من غناء وثراء، وأضافوا أنه من الأجدى للأمير بلدوين أن يبيع إمارته لسيدهم بمبلغ كبير من المال ليعود به إلى فرنسا حيث لا جدوى من استمرار بقائه فى المنطقة[١٥] .

---

(١٢) هو قائد تركى من رجال السلطان محمد بن ملكشاه وقد شارك فى العديد من الوقائع التى دارت بين السلطان محمد وأخيه بركياروق، ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته راجع: ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨م، ص١٧٤؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ١٢ج، بيروت ١٩٧٩م، ج١٠، ص١٣٨.

(١٣) ومن الجدير بالذكر أن الأمير شرف الدين مودود قام بعدة غارات مدمرة على إمارة الرها وألحق بها أضرارًا بالغة فى شتى النواحى، حيث أجبر العديد من السكان الأرمن على ترك مساكنهم وأراضيهم، كما ألحق الدمار والخراب بالممتلكات والأراضى الزراعية. ولمزيد من التفاصيل عن ذلك راجع:

ابن القلانسى: المصدر السابق، ص١٦٩، ١٧٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ٣ج ، تحقيق سامى الدهان، دمشق ١٩٦٨م، ج١، ص١٥٤.

(14) Matthieu d'Edesse, op. Cit., T. I, pp. 91- 92, 96- 97; William of tyre, op. Cit., Vol. I, pp. 496- 98.

راجع أيضًا: علية الجنزورى: إمارة الرها الصليبية، القاهرة، ١٩٧٥م، ص١٣٧- ٤٦.

(15) William of Tyre, Op. Cit., Vol.I, pp. 489- 90.

وعندما عاد رسل الأمير بلدوين أوف بورج إلى الرها وقصوا عليه ما قيل فى حقه من إهانات من قبل أتباع جوسلين فى تل باشر تميز من الغيظ وأسر الأمر فى نفسه ولم يبده لأحد ريثما تلوح له الفرصة للانتقام، ولم ينتظر بلدوين طويلاً بل أرسل على الفور إلى تابعه يطلب منه القدوم عليه فى الرها لمناقشة بعض الأمور التى تخص الإمارة. وعندما دخل جوسلين على سيده بقلعته فى الرها غُلقت الأبواب وأخذ بلدوين يوبخ تابعه على تقصيره وتقاعسه فى مساعدة إمارة الرها وعمَ بدر من أتباعه من إهانات فى حقه، وأمر به فزج فى غياهب السجن. وتحت وطأة التعذيب اضطر جوسلين أوف كورتناى إلى التنازل عن كافة ممتلكاته فأصبح شريدًا لا يدرى إلى أين يذهب بعدما جرد من كل ما كان يملك [١٦] ، وضاقت به السبل ولم يجد أمامه من قوة يحتمى بها سوى اللجوء إلى بلدوين الأول Baldwin I ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨م/ ٤٩٤ - ٥١٢ هـ) الذى آواه وشمله بعطفه ورعايته [١٧] .

الواقع أن ما تعرض له جوسلين أوف كورتناى من اضطهاد وتعذيب وتجريد من الممتلكات يعتبر سببًا مقنعًا وكافيًا لطلب اللجوء لدى بلدوين الأول ملك بيت المقدس، ولكن ما هى الدوافع التى حدت بالملك بلدوين أن يستقبل الأمير جوسلين ويرحب به فى مملكته؟.

الثابت أن الملك بلدوين كان فى أمس الحاجة إلى من يساعده ويخفف عنه شيئًا من أعباء المملكة التى ينوء بها كاهله خاصة فى تلك الفترة التى أخذت فيها بوادر اليقظة العربية تظهر شيئًا فشيئًا، وبدأت حركة الجهاد المقدس ضد الصليبيين تلوح

---

(16) Matthieu de'Edesse, op. cit., T. I, pp. 125- 26; William of Tyre, op. cit., Vol. 1, pp. 490- 91; A.S.C., The first and The Second Crusad, ed. and Tr. by A.S. Tritton, The Journal of The Royal Asiatic Society, London, 1933, Part, 1., pp. 69- 101, p. 85.

انظر أيضًا: ابن القلانسى: المصدر السابق، ص١٣٣.

(17) William of Tyre, op. cit., Vol., 1, p. 492; A.S.C. loc. Cit., Cf. also, la Mont, J. L.Feudel Monarchy in the Latin kingdom, New York, 1970, p. 200.

فى الأفق وحمل رايتها عدد من رواد الجهاد الأول أمثال الأمير شرف الدين مودود ومن بعده البرسقى وبرسق بن برسق وغيرهم [١٨] ، هذا فضلاً عن أن بعض أجزاء المملكة قد مات عنها أميرها وأصبحت بلا قائد يدافع عنها ويدير شئونها فأصبحت عبئًا إضافيًا على عاتق الملك بلدوين الأول[١٩] ، لذلك اعتبر لجوء جوسلين أوف كورتناى إلى المملكة فى ذلك الوقت فرصة مواتية، خاصة وقد توسم فيه الملك الفطنة والكفاءة والقوة والشجاعة. وهذه صفات لابد أن تتوافر فيمن يتولى حكم إمارة صليبية هامة ومتاخمة لإمارة دمشق الإسلامية؛ وعليه فقد منح الملك بلدوين حكم مدينة طبرية وتوابعها للأمير جوسلين الذى لم يخيب فراسته فيه بل كان بحق من خيرة قادة الصليبيين، ولِمَ لا وهو الذى تمرس على الحكم والقيادة من قبل فى منطقة أعالى الفرات المتاخمة للحدود الإسلامية [٢٠] .

أما عن نشاط الأمير جوسلين إبان فترة لجوئه فى طبرية (١١١٣ - ١١١٩م/ ٥٠٧ - ٥١٣ هـ) فنلاحظ أنه لم يدخر وسعًا فى حكم إمارته الجديدة،

---

[١٨] عن ظهور حركة الجهاد ورواده الأول فى منطقة الشرق الأدنى: راجع: محمد محمد الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها، دار الثغر، الإسكندرية، ١٩٧٢م، ص٢١٠- ٥٨.

[١٩] ومن المعروف أن جرفيه دى بوزوك Gervais de Bozoches أمير طبرية والجليل ١١٠٦- ١١٠٨م/ ٤٩٩- ٥٠١هـ لقى مصرعه أثناء تصديه لإحدى غارات مسلمى دمشق على إمارته وظلت الإمارة منذئذ تحت وصاية الملك بلدوين الأول حتى مجيء جوسلين أوف كورتناى فى ١١١٣م/ ٥٠٧هـ فمنحها له. عن ذلك انظر:

Albert d'Aix, op. cit. T. IV, pp. 657- 58.

انظر أيضًا: ابن القلانسى: المصدر السابق ص١٦١- ١٦٢.

[20] William of Tyre, loc. cit; Matthieu d'Edesse, op. Cit., T. I, p. 126.

انظر أيضًا: ابن القلانسى : المصدر السابق ص١٢٨. راجع أيضًا

Steven Tibble, Monarchy and Lordships in the Latin Kingdon of Jerusalem 1099- 1291, Clarendon press, Oxford, 1989, pp. 12, 157.

وعن موقع طبرية وغيرها من المدن التى سيرد اسمها فى البحث راجع الخريطة فى آخر البحث.

وحـــاول جاهدًا توسيع حدودها وإضفاء مسحة من الهيبة عليها مستعينًا بالقوة تارة وبالدبلوماســية تارة أخرى وفق ما تمليه عليه مقتضيات الموقف، وقد نجح فى ذلك إلى حد كبير فقد استغل قرب ممتلكاته من الحدود الإسلامية مع دمشق، وقام بتهديد القــوافل التجارية المارة بحدود إمارته ونهب ما بها من ثروات وأموال [٢١] ، كما شــن الغــارات على القبائل العربية القاطنة فى منطقة شرق الأردن واستولى على قطعــانهم ودوابهــم [٢٢] ، الأمر الذى أفاده كثيرًا فى إضفاء مسحة من الهيبة على إمارته من جهة وملء خزائنه من تلك الأموال التى استولى عليها من جهة أخرى، كما نجح فى الاستيلاء على عدد من القرى الإسلامية التابعة لمدينة صور وضمها إلــى ممتلكاته مستغلاً فى ذلك حالة الضعف التى اعترت الجبهة الإسلامية فى ذلك الوقت [٢٣] .

ورغم النجاحات التى أحرزها جوسلين إبان تلك الفترة إلا أن الأمر لم يخل مــن وقوعه فى بعض الكبوات الثقيلة، ولعل من أهمها الهزيمة المنكرة التى حاقت بــه وبقوات المملكة التى كان يقودها فى معركة جسر الصنبرة قرب بحيرة طبرية فى ٢٨ من يونيو ١١١٣ م/ ١١ من محرم ٥٠٧ هــ على أيدى القوات الإسلامية المتحدة بقيادة الأمير شرف الدين مودود، وكاد أن يفقد فيها حياته [٢٤] .

---

[٢١] ابن القلانسى: المصدر السابق، ص١٨٣؛ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج١٠، ص٤٩٨، انظر أيضًا:

Albert d'Aix, op. cit., T, IV, p. 693.

[22] Albert d'Aix, Ibid., pp. 710 - 11.

[23] William of Tyre, op. cit., Vol. I, p. 574.

[٢٤] مما لاشك فيه أن طغتكين أمير دمشق استغل فرصة اضطلاع الأمير شرف الدين مودود بحمل راية الجهاد ضد الصليبيين، وطلب منه القدوم عليه ومساعدته فى التصدى لتهديدات صليبى مملكة بيت المقدس فوافق مودود على ذلك وتوحدت قواتهما وتوجها صوب إقليم طبرية فتصدت لهما قوات المملكة بقيادة جوسلين أوف كورتناى. ولمزيد من التفاصيل عن معركة جسر الصنبرة، وأهم نتائجها. انظر: =

لم تكن حالة الحرب هى السمة المميزة لتلك الفترة التى قضاها جوسلين فى طبرية، بل يمكننا القول: إنها كانت عارضة ووجيزة للغاية، وأن السلام والاستقرار كـــان السمة المميزة لتلك الفترة وذلك نتيجة لسياسته الدبلوماسية التى انتهجها تجاه خصـــومه من المسلمين وقد ساعدته الظروف على ذلك، فقد انتهز فرصة الخلاف الذى نشب بين طغتكين أتابك دمشق (١١٠٤ - ١١٢٨م/ ٤٩٨- ٥٢٢ هـــ) وبين السلطان محمد بن ملك شاه السلجوقى (١١٠٥ - ١١١٨م/ ٤٩٩ - ٥١٢هـــ) بعد اتهـــام الأخيـــر لطغتكين بالضلوع فى مؤامرة قتل شرف الدين مودود [٢٥] وتكليف البرســـقى -خليفـــته فى الموصل- بمواصلة حركة الجهاد ضد الصليبيين من جهة وإخضـــاع الإمـــارات الســـلجوقية فى الشام من جهة أخرى، مما دفع طغتكين إلى الـــتوجس خـــيفة مـــن نوايا السلطان محمد فارتمى فى أحضان الصليبيين وسالمهم خاصـــة جوسلين أوف كورتناى أمير طبرية؛ ونتيجة لذلك نعم إقليم طبرية بالأمن والسلام طوال الفترة الممتدة من ١١١٣ - ١١١٨م/ ٥٠٧ - ٥١٢ هـــ[٢٦] .

= ابن القلانسى: المصدر السابق، ص١٨٤- ٨٥؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص٤٩٥. انظر أيضًا:

Fulcher of Chartres, A History of the Expedition to Jerusalem, Tr. Frances Rita Ryan, knuville, U.S.A., 1969, pp. 205- 206; william of Tyre, op. cit., vol.1, pp. 493- 94; Albert d'Aix, op. cit.I. T. IV, pp. 693- 95.

[٢٥] ومن الجدير بالذكر أن مودود كان برفقة طغتكين فى مسجد دمشق عندما قام أحد الباطنية بطعنه. ولمزيد من التفاصيل عن ملابسات تلك الحادثة وموقف طغتكين منها انظر : ابن القلانسى: المصدر السابق، ص ١٨٧- ٨٨؛ ابن الأثير: المصدر السابق، ج١٠، ص٤٩٧، انظر أيضًا:

Fulcher of Chartres, op. cit., p. 202; William of tyre, op. ciy., vol. 1, p. 195; Matthieu d' Edesse, Op. Cit., T. 1, P. 107.

[26] Fulcher of Chartres, op. cit., p. 210; William of Tyre, op. ciy., vol. 1, p. 501.

انظر أيضًا: ابن القلانسى: المصدر السابق، ص١٩٠؛ ابن الأثير: المصدر السابق ، ج١٠، ص٥١٤.

لم تقتصر دبلوماسية جوسلين على جيرانه من المسلمين فحسب، بل امتدت لتشمل خصومه من الصليبيين أنفسهم، فعلى الرغم من تجريده من ممتلكاته فى أعالى الفرات وإكراهه على مغادرة محل إقامته وطلب اللجوء إلى مملكة بيت المقدس، فقد كان لديه من المرونة ما جعله يتغاضى عما ألحق به بلدوين أوف بورج أمير الرها من عنت فى ١١١٣م/ ٥٠٧ هـ ويسعى جاهدًا فى مؤازرته ومساندته طالما كان ذلك يصب فى مصلحته الشخصية. فبعد موت الملك بلدوين الأول فى إبريل ١١١٨ م/ ذى الحجة ٥١١ هـ، أسرع جوسلين بالمناداة بترشيح غريمه بلدوين أوف بورج- الذى تصادف وجوده فى بيت المقدس فى ذلك الوقت- ليكون ملكًا عليه وعدم انتظار قدوم أيوستاس Eustace شقيق الملك بلدوين من الغرب، نظرًا لأن المملكة فى حاجة ماسة إلى رجل يدير شئونها ويمسك بزمام الأمور بها خاصة فى تلك الفترة الحرجة التى تمر بها، وأن بلدوين أوف بورج يتمتع بخبرة ومقدرة تؤهله لشغل هذا المنصب الرفيع. وقد كان لرأى جوسلين هذا أثره الكبير على بقية أمراء المملكة الذين أيدوه فى موقفه، وعليه تم انتخاب بلدوين أوف بورج ملكًا على بيت المقدس ١١١٨ م/ ٥١٢ [٢٧] ، وهذا يدل على بعد نظر جوسلين وفكره الثاقب، فتناسيه إساءة بلدوين أوف بورج له من قبل جعلته لا يسترد ما جرد منه فحسب بل أضاف إليه حكم إمارة الرها أيضًا التى عاد إليها مرة أخرى معززًا مكرمًا فى ١١١٩م/ ٥١٣ هـ [٢٨].

لم يقتصر اللجوء السياسى على الصليبيين فحسب، بل شاركهم المسلمون

---

[٢٧] ومن الثابت أن الملك بلدوين قد أوصى بالعرش قبل موته إلى أخيه أبوستاس الذى كان فى الغرب آنذاك إذا ما رغب فى القدوم ثانية إلى الأراضى المقدسة أو أن يمنح العرش لابن عمه بلدوين أوف بورج أو أى أمير كفء آخر.

وعن موقف جوسلين من تتويج بلدوين أوف بورج راجع:

William, of Tyre, op. cit., vol. 1, p. 520; Matthieu d'Edesse, op. cit., T.I, pp. 118- 119; A.S.C., p. 86

[28] William of Typr, op. cit., Vol. 1, p. 522.

كـذلك ؛ فتشـير المصادر إلى أن التونتاش[٢٩] والى بصرى وصرخد -من أعمال حـوران[٣٠] - قد ساءت علاقته بأتابك دمشق معين الدين أنر حيث أراد أن يستقل بمدينتـيه عن دمشق، وعندما أحس أن معين الدين أنر علم بذلك توجس خيفة منه فترك إمارته تحت وصاية زوجته ولجأ إلى مملكة بيت المقدس ملتمسًا اللجوء إليها عارضًا على الملك بلدوين الثالث Baldwin III ١١٤٣ -١١٦٢م/ ٥٣٨ -٥٥٦هـ استعداده لتخليه عن مدينتى بصرى وصرخد نظير تعويض الصليبيين له تعويضًا مناسبًا وذلك فى مايو ١١٤٧ م/ ذى الحجة ٥٤١ هـ[٣١] .

ناقش الصليبيون العرض الذى تقدم به التونتاش مناقشة مستفيضة وتوصلوا فـى النهاية إلى قرار يقضى بقبوله رغم علمهم بأن ذلك سيؤدى إلى توتر العلاقات بيـنهم وبـين دمشـق التى تعتبر حليفتهم المخلصة فى مواجهة أهداف نور الدين محمـود ١١٤٦ - ١١٧٤م/ ٥٤١ - ٥٧١هـ ومشـروعاته فـى توحيد الجبهة الإسـلامية، إلا أن لعـابهم سال أمام هذا العرض المغرى الذى سيتيح لهم فرصة توسـيع ممـتلكاتهم على حساب دمشق واعتبروا ذلك خطوة فى الطريق نحو بسط سيادتهم على دمشق مستقبلاً[٣٢].

---

[٢٩] هو أحد الأشراف من أصل أرمينى، وكان غلامًا لأمين الدولة كمشتكين الأتابكى والى صرخد السابق، وقد ورد اسمه بعدة صور مختلفة فى المصادر منها: اليونياس، النونتاش، الترنتاش، تانتايوس، عن ذلك انظر: ابن القلانسى: الذيل ، ص٢٨٩، انظر أيضًا:

William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 147.

[٣٠] حوران: قرية من نواحى دمشق قالوا أنها قرية أصحاب الأخدود. عن ذلك انظر: القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص١٨٥؛ ابن حوقل: صورة الأرض، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩، ص١٧٠، وعن موقع بصرى وصرخد راجع الخريطة فى آخر البحث.

[٣١] ابن القلانسى: نفس المصدر والصفحة ، انظر أيضًا:

William of Tyre, loc. cit.,

[32] William of Tyre, Ibid., pp. 146- 47.

ولكـــن الســـؤال الذى يطرح نفسه، لماذا طلب الأمير التونتاش اللجوء إلى الملـــك بلدوين الثالث ولم يطلبه من نور الدين محمود رغم علمه بحالة الوفاق بين دمشـــق وبيت المقدس ووجود هدنة بين الطرفين؟ [٣٣] لعل متاخمة مدينتى بصرى وصـــرخد لحدود المملكة الصليبية وهى قوة لا يستهان بها هو الذى دفع التونتاش إلى ذلك؛ إذ سيكون بوسعه الوصول إليهم فى أسرع وقت، فى حين أن المسافة بينه وبين نور الدين بحلب أضعاف المسافة بينه وبين مملكة بيت المقدس هذا من جهة، كمـــا أن التونتاش كان من الدهاء بحيث أدرك أن الصليبيين يمكن أن يسيل لعابهم أمـــام عرضه المغرى ويتجاهلون مصالحهم الحيوية مع دمشق من جهة أخرى، أما اللجـــوء إلى نور الدين فينطوى على مغامرة خطيرة يمكن أن تفقده حياته فى ظل ســـعى نور الدين الحثيث إلى التقرب من دمشق بشتى السبل خاصة بعد زواجه من ابـــنة معين الدين فى بدايات ١١٤٧م / ٥٤١هـــ [٣٤] ، لذلك أعرض التونتاش عن طلب اللجوء من نور الدين ومال إلى جانب الصليبيين.

علـــى أيـــة حال أراد الملك بلدوين الثالث أن يمسك العصا من المنتصف، فمن جهة يقبل عرض التونتاش، ومن جهة أخرى يعمل على المحافظة على تحالفه مـــع دمشـــق وذلك بإيهامها أنه لا يريد نقض الهدنة والدخول معها فى حرب وإنما يـــريد فقـــط الـــوفاء بتعهداته للأمير التونتاش وكتب خطابًا بهذا المعنى إلى معين الدين أنر [٣٥] .

---

[٣٣] من المعروف أن الهدنة بين دمشق ومملكة بين المقدس قد أبرمت فى ١١٤٠م/ ٥٣٤ هـــ وذلك للتصدى لحظر عماد الدين زنكى. عن ذلك انظر: ابن القلانسى: المصدر السابق، ص٢٧٢. انظر أيضًا:

William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 105;A.S.C., p. 274.

[٣٤] ومن الثابت أن الاتفاق بين معين الدين ونور الدين حول زواج الأخير من ابنة معين الدين قد تم فى مارس ١١٤٧م/ شوال ٥٤٣هـــ. عن ذلك انظر:

ابن القلانسى: المصدر السابق ، ص٢٨٨- ٨٩.

[35] William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 148.

لم يتسرع معين الدين أنر فى الرد على الملك بلدوين الثالث، بل تمهل قليلاً ريثما يعد نفسه والبلاد لمواجهة الخطر الصليبى المرتقب. ومع أنه أرسل يطلب مساعدة نور الدين الذى لبى نداءه على الفور، فإن الشك والريبة التى داخلته من نوايا نور الدين دفعت به إلى عدم الوثوق به ومكاتبة الصليبيين، فأرسل إلى الملك بلدوين الثالث خطابًا عاتبه فى مقدمته على سوء صنيعه وحمايته لتابع له وقال فى خطابه الذى أورده وليم الصورى «لقد خالفتم شروط الاتفاق الذى ارتضيتموه؛ إذ أخذتم تستعدون لدخول أرض مولاى مجير الدين أبق، وأخذت أنت أيها الملك تبسط حمايتك على تابعه الخارج عليه -التونتاش- الذى لا يستحق الرعاية، والذى يعمل عكس ما تمليه عليه يمين الطاعة التى أقسمها له» وناشد الملك عدم خرق المعاهدة وأن يرعى السلام الذى بينهما، كما أبدى استعداده لتعويض الصليبيين عن جميع النفقات التى بذلوها فى تجهيزهم لتلك الحملة، غير أن رد الملك بلدوين جاء مخيبًا لآمال أنر إذ ذكر «أن الشرف يأبى علينا أن نخذل رجلاً وضع أمله فى مملكتنا»[٣٦] وبذلك أصبح الصدام بين الجانبين أمرًا حتميًا.

ومهما يكن من أمر لم يضيع الصليبيون الوقت وزحفوا بقواتهم صوب مدينتى بصرى وصرخد اللتين كانت القوات الإسلامية المتحدة تحاصرهما فتصدت لهم وحالت بينهم وبين الاستيلاء على أى منهما وأجبروهم على العودة ثانية من حيث أتوا بعد أن كبدوهم خسائر فادحة فى الأرواح والعتاد. وقد تعرض الصليبيون لمواقف لا يحسدون عليها أثناء انسحابهم إلى بيت المقدس. وكان بوسع القوات الإسلامية الإجهاز عليهم غير أن معين الدين أنر لم يشأ ذلك حتى يبقى على التوازن قائمًا بين الصليبيين ونور الدين فلا يستفرد به أحدهما [٣٧] .

---

(36) Ibid., pp. 148- 50.

[٣٧] أسهب المؤرخ وليم الصورى فى ذكر تفاصيل تلك الحملة وما تعرض له الصليبيون من مخاطر وما لحق بهم من أذى عن ذلك انظر:

William of Tyre, Ibid., pp. 150- 57.

انظر أيضًا: ابن القلانسى: المصدر السابق، ص٢٨٩- ٩٠.

راجع أيضًا: حسن حبشى: نور الدين والصليبيون، دار الفكر العربى، الإسكندرية ١٩٤٨ م، ص٤٣- ٤٩.

ولكـــن بقى لنا أن نتساءل: هل وفَّى الصليبيون -رغم فشلهم فى الاستيلاء علـــى مدينتـــى بصـــرى وصرخد- للتونتاش، ما وعدوه من قبل؟ الثابت أن لجوء التونـــتاش لبـــيت المقـــدس وإقامته به لم يستمر طويلاً؛ حيث انتهى دوره السياسى سريعًا قبل أن يعرف ما يخفيه له القدر، فقد اتفقت المصادر العربية والغربية حول مـــا آل إليه مصيره، ولكنهما اختلفتا فى الطريقة التى تم بها ذلك؛ ففى حين ذكرت المصـــادر العربية أن التونتاش بعد هزيمة الصليبيين وفشلهم فى تحقيق هدفهم رث حبل رجائه وأيقن أن الصليبيين لن يوفوا له ما وعدوه، وأن لا جدوى من استمرار لجوئه لديهم "فوصل بجهله وسخافة عقله إلى دمشق من بلاد الإفرنج بغير أمان ولا تقرير استئذان توهمًا منه أنه يكرم بعد الإساءة القبيحة والارتداد عن الإسلام فاعتقل فى الحال فسملت عيناه وأطلق إلى دار له بدمشق فأقام بها" [٣٨] .

أمـــا المصادر الغربية فذكرت أن أنر "بعث إلى التونتاش بحجة المصالحة ونســـيان مـــا مضى وخدعه بكلماته المعسولة، فلما صار هذا الرجل التعيس عنده عاملـــه أسوأ معاملة تنطوى على العار، إذ سمل عينيه فعاش ما عاش بعدئذ يقاسى أسوأ صنوف الفقر والتعاسة" [٣٩] .

فـــى الواقـــع أننا إذا أمعنا النظر فيما أوردته المصادر العربية نجد أنها لا تـــتفق مطلقًا مع الواقع؛ إذ كيف يمكن أن نتخيل أن يعود التونتاش إلى دمشق بهذه البســـاطة وفى مخيلته أنه سيستقبل بالحفاوة والتكريم رغم ما اقترفه فى حق معين الدين أنر والمسلمين من إهانة، لذلك فإن الباحث لا يميل إلى الأخذ بما جاء فى تلك الرواية العربية.

ولعـــل الأقرب إلى الحقيقة هو ما جاء فى الرواية الغربية على اعتبار أن معـــين الـــدين أنر هو الذى استدرج التونتاش وألان له القول، ولعله ذكره بوجود زوجته فى أسره ووعده بالصفح عنه إن هو عاد ثانية إلى دمشق، وهذا أسلوب ينم

---

[٣٨] ابن القلانسى: المصدر السابق، ص٢٨٩.

[39] William of Tyre, op. cit., Vol. II, p. 157.

عـن قـدرة فائقـة فـى المكر والدهاء وهى صفات تميز بها معين الدين وكثيرًا مـا استخدمها مع خصومه سواء من المسلمين أو الصليبيين، وخير دليل على ذلك مـا جـاء فـى رسالته التى بعث بها إلى الملك بلدوين الثالث سالفة الذكر، وكذلك إحجامه عن الإجهاز على الصليبيين أثناء انسحابهم إلى مملكة بيت المقدس وهم فى متـناول أيدى القوات الإسلامية ليبقى على التوازن العسكرى فى المنطقة ويحافظ على استقلال إمارته.

وباستثناء الحملة التى رافق التونتاش فيها الصليبيين ضد بصرى وصرخد، لـم تمـدنا المصـادر المـتاحة بمعلومات توضح لنا نشاطه إبان فترة لجوئه لدى الصليبيين، ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى قصر المدة التى قضاها هناك وانهماكه فى المفاوضات مع معين الدين أنر بخصوص عودته ثانية إلى دمشق.

أمـا إذا انتقلنا إلى الحديث عن لجوء الأمير البيزنطى أندرونيقوس كومنين Andronikos Comnen [٤٠] إلى الشرق اللاتينى، فتذكر المصادر أن العلاقات بين أندرونـيقوس وابـن عمـه الإمبراطور مانويل كومنين Manuel Comnen ١١٤٣ - ١١٨٠) م/ ٥٣٨ - ٥٧٦هـ) لـم تكـن على ما يرام رغم أنهما كانا صـديقين حميمين قبل أن يتربع مانويل على عرش بيزنطة؛ فقد عاش الاثنان معًا فى بلاط القسطنطينية حياة ملؤها الحب والوئام حتى سنة ١١٤٣م / ٥٣٨هـ عندما

---

[٤٠] وُلد أندرونيقوس كومنين سنة ١١٢٠م/ ٥١٤هـ ووالده إسحق كومنين Isaac Comnen شقيق الإمبراطور يوحنا الثانى John II، وكان مثالاً متكاملاً للفارس البيزنطى فى العصور الوسطى، وأصبح إمبراطورًا على بيزنطة ١١٨٣- ١١٨٥م/ ٥٧٩ - ٥٨١هـ. ولمزيد من التفاصيل عن شخصيته وحياته راجع:

Niketas, O City of Byzantium, Annals of Niketas Choniates, Tr. Harry J. Magoulias, Wayne state University press, Detroit, 1984, pp. 187-88, cf. also, Hussey, The Later Macedonians, The Comneni and The Angeli 1025- 1204, ed. (C.M.H.), Vol. IV, part. 1, Cambridge, 1976, pp. 193- 259, p. 244.

اشـــتركا سويًا فى الحملة التى قادها الإمبراطور يوحنا الثانى John II(١١١٨ - ١١٤٣م/ ٥١٢ - ٥٣٨هـــ) ضد بلاد الشام [٤١] . وعندما مات الإمبراطور يوحنا أثـــناء تلـــك الحملة فى قليقية، كان على ابنه مانويل العودة ثانية إلى القسطنطينية بأقصـــى ســـرعة لـــيخلف أباه على العرش، بينما تخلف أندرونيقوس عن صفوف الجيش بغرض الصيد فوقع أسيرًا فى أيدى سلاجقة قونية، ولم يبذل مانويل أى جهد فـــى إطـــلاق سراح ابن عمه نظرًا لانشغاله بتأمين تربعه على العرش، ومنذ ذلك الحـــين ســـاءت العلاقات وتوترت بين الرجلين، خاصة أن الإمبراطور مانويل لم يحـــاول تبرير موقفه ولم يقدم اعتذارًا لما حدث منه بعد إطلاق سراح أندرونيقوس ممـــا أوغر صدر الأخير عليه، ولم يعد بالإمكان بقاء الرجلين معًا فى مكان واحد خاصة وان الإمبراطور مانويل كان يغار من قدرات ابن عمه الذهنية والجسمانية، فضـــلاً عـــن أن أندرونيقوس يكاد يكون هو الأمير الوحيد فى البلاط الذى بوسعه معارضة الإمبراطور وجهًا لوجه مما كان يسبب لمانويل حرجًا كبيرًا [٤٢] .

وعمل الإمبراطور مانويل جاهدًا على التخلص من وجود أندرونيقوس معه بالقســـطنطينية فحـــاول إبعـــاده عن العاصمة تارة بتكليفه بإخضاع الأمير ثوروس الثانـــى الأرمينـــى (Thoros II ١١١٤ - ١١٦٧م/ ٥٣٩ - ٥٦٣هـــ) [٤٣] وتارة

---

[٤١] ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور يوحنا كان يهدف من وراء حملته تلك، انتزاع إمارة أنطاكية من أيدى ريموند أوف بواتيه ١١٣٦- ١١٤٩م/ ٥٣١- ٥٤٤هـــ وإعادتها ثانية إلى الحظيرة البيزنطية، ولمزيد من التفاصيل عن ذلك انظر:

Kimnanos, Deeds of John and Manuel Comnenus, Tr. charles M. Brand, New York, 1976, pp. 26- 27; Niketas, op. cit., pp. 25- 27.

[42] Kimmamos, op. cit., pp. 27, 33- 4.

وقد أشار نيقيتاس إلى أن السلاجقة أطلقوا سراح أندرونيقوس دون أن يدفع فدية. انظر:

Niketas, op. cit., p. 30.

[٤٣] ومن الجدير بالإشارة أن الأمير ثوروس شق عصا الطاعة واستولى على عدد من المدن البيزنطية بقليقية. ولمزيد من التفاصيل انظر: =

أخـــرى بتكلـــيفه بالدفاع عن حدود الإمبراطورية ضد الخطر المجرى[٤٤] ، إلا أن تلكما المحاولتين باءتا بالفشل؛ نظرًا لأن أندرونيقوس كان يدرك جيدًا ما يهدف إليه ابـــن عمه من وراء ذلك فتمادى فى الكيد له والتآمر عليه حتى وصل الأمر به إلى محاولـــة اغتياله، إلا أنه فشل فى ذلك وقبض عليه الإمبراطور مانويل وأمر بالزج به فى سجن القصر الكبير بالقسطنطينية[٤٥] ؛ حيث ظل سجينًا به قرابة تسع سنوات ١١٥٥ - ١١٦٤م / ٥٥٠ - ٥٥٩هـــ إلـــى أن تمكن أخيرًا من الهرب ولجأ إلى دوق روســـيا يـــارو ســـلاف Yaroslave فى جاليشيا Galicia -الواقعة على نهر الدينستر Dneister- الذى رحب به وسمح له بالإقامة فى بلاده، إلا أن الإمبراطور مانويل -الذى لم يكن قط يأمن مكر ابن عمه أندرونيقوس أوجس خيفة من وجوده هناك بعيدًا عنه لا يدرى شيئًا عما يدبره ضده من مؤامرات وخشى أن يتحالف مع يـــارو سلاف ويشكلا خطرًا جديدًا على دولته؛ لذلك حاول مانويل -بما عرف من دهاء- استدراج أندرونيقوس ثانية إلى القسطنطينية واعدًا إياه بالصفح عنه ونسيان

= Kinnamos, op. cit., pp. 96- 7; Grégoir le Prêtre, Chronique de Grégoire le Prêtre, ed. (R.H.C., Doc. Arm.,) T. I. Paris, 1869, pp. 151- 201, pp. 168- 70; cf. also, Phillips, Defenders of The Holy land, Clarendon press, Oxford 1996, p. 125.

ولمزيد من التفاصيل عن حملة أندرونيقوس ضد الأمير ثوروس راجع:

محمود سعيد عمران: السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣- ١١٨٠م، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٥، ص١٨٩- ٩٤.

[44] Kinnamos, op. cit., p. 98.

ومن الجدير بالذكر أن الإمبراطور مانويل قام فى عامى ١١٥٠ و١١٥١ بشن الحرب على المجر لتحالفها مع كل من العرب ونورمان صقلية فى جنوب إيطاليا أعداء الإمبراطورية البيزنطية. ولمزيد من التفاصيل انظر:

Gy Moravesik, Hungary and Byzantium in the Middle Ages, ed. (C.M.H.), Vol. IV, pt. 1, Cambridge, 1976, pp. 567- 95, p. 582.

[٤٥] أسهب كيناموس فى ذكر تفاصيل مؤامرات أندرونيقوس ضد الإمبراطور مانويل عن ذلك انظر:

Kinnamos, op. cit., pp. 110- 3.

مـــا مضـــى إذا ما كف عن إحاكة المؤامرات ضده، فوافق أندرونيقوس على ذلك وعاد ثانية إلى القسطنطينية معززًا مكرمًا فى عام ١١٦٥ م/ ٥٦٠هـ [٤٦] .

لا جـــرم أن ما تعرض له أندرونيقوس من سجن وتعذيب طيلة هذه المدة مـــن الزمن، هو الذى دفع به إلى الهرب خوفًا على حياته ملتمسًا اللجوء لدى دوق روسيا نظرًا لعلمه بتوتر العلاقات بين روسيا وبيزنطة مما سيوفر له بلا شك ملجأ آمـــنًا وإقامـــة مستقرة بعيدًا عن أعين الإمبراطور مانويل، وبذلك تتاح له الفرصة للكـــيد لـــه والتآمـــر ضده، الأمر الذى خشى منه الإمبراطور مانويل وسعى بشتى السبل إلى إعادته ثانية إلى القسطنطينية.

ولـــم تطل إقامة أندرونيقوس طويلاً بالقسطنطينية، فلم يمض أكثر من عام علـــى عـــودته إلى العاصمة حتى ضاق الإمبراطور مانويل به ذرعًا واضطر إلى إبعاده عن القسطنطينية؛ لأن وجوده يمثل تهديدًا لاستقرار البلاد، فمن المعروف أن مانـــويل حتـــى نهايـــة ١١٦٥م / ٥٦٠هـــ لـــم يكن له وريث ذكر فأراد توحيد إمبـــراطورية المجر مع إمبراطورية بيزنطة عن طريق المصاهرة بأن يزوج ابنته مـــارى Mary من الأمير بيلا Bella الذى سيئول إليه عرش المجر فيما بعد ليكونا خليفيه على عرش البلاد. وعندما طُلب من أندرونيقوس أن يحلف يمين الولاء لهما باعتـــبارهما وريثـــى العرش، لم يرفض أداء اليمين فحسب، بل حرّض غيره من الأمـــراء علـــى أن يحذوا حذوه؛ فخشى مانويل من عواقب ذلك فاضطر إلى إبعاد أندرونـــيقوس عـــن القسطنطينية وإرساله إلى قليقية عام ١١٦٦م / ٥٦١هـــ بحجة إخضاع الأمير ثوروس الأرمينى مرة أخرى [٤٧] .

---

[٤٦] لجأ أندرونيقوس إلى دوق روسيا نظرًا لتوتر العلاقات بين روسيا وبيزنطة بعدما تحالف ياروسلاف مع ستيفن الثالث ملك المجر ١١٦٣- ١١٧٦م/ ٥٥٩- ٥٧٢هـــ، وقدم له مساعدات عسكرية فى حربه ضد مانويل. انظر:

Ibid., pp. 176- 78 ff; Niketas, op. cit., pp. 77- 78.

(47) Kinnamos, op. cit., pp. 163, 188.

غيرّ مانويل خططه لوراثة العرش بعد أن رزق بابنه أليكسيوس من زوجته مارى الأنطاكية ١١٦٩م/ ٥٦٥هـــ، وعليه لم يتم زواج بيلا من مارى ابنة الإمبراطور مانويل عن ذلك انظر:

Niketas, op. cit., p. 73, 78; cf. also, Moravesik, op. cit., pp. 583- 84.

لم يكن أمام أندرونيقوس سوى تنفيذ ما كُلف به رغم أنه كان على يقين بأن هـذه المهمـة لم تكن سوى ذريعة للتخلص من وجوده بالقسطنطينية، وبدلاً من أن يعمـل على استقرار الأمور بقليقية واستتباب الأمن بها نجده يعمل على إثارة حنق الأرمن وسخطهم خاصة بعد قتله استيفانى شقيق الأمير ثوروس؛ الأمر الذى ألهب مشاعر الأرمن ودفعهم إلى الثورة والانتقام من الرعايا البيزنطيين بالمنطقة. وأمام تلـك الـثورة أصبح أندرونيقوس فى موقف لا يحسد عليه، فليس بوسعه البقاء فى قليقـية وسط تذمر الأرمن ولا العودة إلى القسطنطينية لعجزه عن تبرير ما قام به بالمـنطقة ممـا سيجعله عرضه لغضب الإمبراطور مانويل بعد مقتل تلك الأعداد الكبيـرة مـن البيزنطيين فى قليقية؛ لذلك قرر اللجوء إلى الشرق اللاتينى لعله يجد هناك الملجأ الآمن والملاذ الهادئ بعيدًا عن ملاحقة الإمبراطور مانويل له [٤٨].

ومهما يكن من أمر اختار أندرونيقوس أنطاكية لتكون ملاذًا آمنًا له، وهذا الاختـيار لم يكن عفويًا وإنما كان مدروسًا وعقلانيًا، فمن جهة تعتبر أنطاكية هى أقـرب الولايات الصليبية التى يمكن الوصول إليها من قليقية فى أسرع وقت، ومن جهـة أخـرى يتيح له فرصة الإقامة بها الاستمرار فى الكيد والنكاية بالإمبراطور مانويل. فعلى الرغم من قصر المدة التى قضاها فى أنطاكية التى لم تتجاوز العام، فقـد نجـح فى إقامة علاقة غرامية مع الأميرة فيليبا Philipa شقيقة الإمبراطورة مـارى زوجـة مانـويل حيث شغفها حبًا بما حباه الله من وسامة، حتى راج حول علاقـتهما القيل والقال وأصبحا مثار حديث أهل أنطاكية؛ الأمر الذى أثار حفيظة الإمبراطور مانويل وزاد من سخطه عليه [٤٩].

---

[٤٨] عن ظروف تولية أندرونيقوس إقليم قيليقية وقتله الأمير استيفانى شقيق ثوروس ورد الفعل الأرمينى انظر:

Crégoire le Prêtre, op. cit., T. I, p. 198 cf. also, R. Lilie, Byzantium and The Crusader States 1096 - 1204, Tr; J. Moris and J. Ridings, Clarendon Press, Oxford, 1993, pp. 193 - 94.

[49] Kinnamos, op. cit., p. 188; Niketas, op. cit., pp. 79- 80; cf. also, Phillips, op. cit., p. 250.

ولمـــا رأى أندرونـــيقوس أن الجو لم يعد مناسبًا للإقامة فى أنطاكية خشية ملاحقـــة الإمبـــراطور مانـــويل له والنيل منه؛ رأى أن يبتعد أكثر لعلمه أن يدى الإمبـــراطور يمكـــن أن تصلا إليه وتبطشا به هناك، فلجأ إلى مملكة بيت المقدس لـــيكون فى حمى الملك عمورى الأول Amalric I(١١٦٣ - ١١٧٤م/ ٥٥٨ - ٥٦٩ هـــ) [٥٠].

يبدو أن روح الانتقام كانت متأصلة فى نفس أندرونيقوس، فلم يدع فرصة إلا وانتهـــزها للحـــط من شان الإمبراطور مانويل وإذلاله، فعندما التجأ إلى مملكة بـــيت المقـــدس الصليبية لم يكن اختياره لها بسبب بُعدها النسبى عن مناطق النفوذ البيزنطـــى إذا ما قورنت بأنطاكية فحسب، بل ليواصل نكايته بالإمبراطور مانويل أيضًـــا. ولكن إذا كانت هذه هى الأسباب التى حدت بأندرونيقوس أن يلتمس اللجوء لـــدى مملكة بيت المقدس، فما هى الدوافع التى أدت بالملك عمورى إلى استضافته فـــوق أرضه وإضفاء حمايته عليه؟ لعل ما جلبه أندرونيقوس معه من ثروة كبيرة من الأموال، فضلاً عن أعداد لا بأس بها من القوات هى التى دفعت الملك عمورى إلـــى قبول لجوئه فى المملكة نظرًا لحاجته الماسة إلى ذلك خاصة وقد عاد لتوه من حملته على مصر، فضلاً عن استفادة المملكة بما يتمتع به أندرونيقوس من مواهب خاصـــة فـــى الناحـــية العسكرية، وسد عجز المملكة من القادة الذين يتولون حكم إقطاعاتها الشاغرة [٥١].

---

[٥٠] ذكر نيكيتاس أن الأميرة فيليبا ماتت كمدًا بعد سنوات قليلة من غدر أندرونيقوس بها، فى حين ذكر ويليم الصورى أن أندرونيقوس قد تزوج من فيليبا ثم طلقها. عن ذلك انظر:

Niketas, op. cit., p. 79; William of Tyre, op. cit., Vol. 2, pp. 316- 17.

وعن وصول أندرونيقوس إلى مملكة بيت المقدس. انظر:

Ibid., p. 345, cf. also, lilie, op. cit., p. 194.

[٥١] ومن الجدير بالذكر أن أندرونيقوس أخذ ما جمعه من ضرائب من قيلقية وقبرص وذهب بها إلى مملكة بيت المقدس وبرفقته أعداد لا بأس بها من فرسان. كما أن إمارة بيروت كانت فى ذلك الوقت تحت وصاية الملك عمورى. عن ذلك انظر:

Niketas, op. cit., p. 78; Kinnamos, op. cit., p. 188; William of Tyre, loc. cit.,.

وبعدما رحب الملك عمورى بأندرونيقوس منحه حكم إمارة بيروت كإقطاع له، غير أن أندرونيقوس لم يبد كبير اهتمام بأمور إمارته الجديدة بل كان حكمه لها صوريًا، فى حين صب كل جهده فى كيفية النيل من الإمبراطور مانويل، فنجده يدخل فى علاقة غرامية جديدة مع الأميرة ثيودورا Theodora ابنه أخى مانويل وأرملة الملك بلدوين الثالث. ورغم فارق السن الكبير بينهما -حيث كان أندرونيقوس يبلغ السابعة والأربعين من عمره فى ذلك الوقت ١١٦٧ م/ ٥٦٢ هـ، وكانت ثيودورا شابة فى مقتبل العمر وعلى قسط وافر من الجمال وتملك فى نفس الوقت إقطاعية عكا كميراث لها من زوجها بلدوين الثالث- فإن أندرونيقوس نجح فى الإيقاع بها وإقامة علاقة آثمة معها وأصبحت عكا مقر إقامته بدلاً من بيروت فشاعت فى أرجاء بيت المقدس تفاصيل تلك العلاقة [٥٢] .

وعندما ترامت إلى مسامع الإمبراطور مانويل تفاصيل تلك العلاقة تميز من الغيظ وعيـل صبره وأرسل على الفور خطابًا إلى عمورى الأول ملك بيت المقدس يحثه فيه على ضرورة القبض على أندرونيقوس وسمل عينيه وإرساله إلى القسطنطينية، ولكن من حسن حظ أندرونيقوس أن وقع هذا الخطاب فى أيدى الأميرة ثيودورا بطريقة أو بأخرى، فأطلعته على فحواه [٥٣] ؛ لذلك رأى أندرونيقوس أنه من الحكمة مغادرة مملكة بيت المقدس على الفور والبحث عن ملجأ آخر بعيدًا عن الملك عمورى، نظرًا لأن الأخير لم يكن بوسعه رفض طلب الإمبراطور خاصة وأن الظرف التاريخى يحتم عليه عدم تعكير صفو العلاقات مع الإمبراطور مانويل، لأنه هو القوة الوحيدة التى بوسعها مد يد العون للمملكة

---

(52) Ibid. p. 395.

وعن حكم أندرونيقوس لإقطاعية بيروت وتفاصيل علاقته بثيودورا راجع:

محمد محمد فرحات: بيروت ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى ١١١٠- ١٢٩١م/ ٥٠٣- ٦٩٠هـ، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص٢٣٠- ٣٣.

(53) Niketas, op. cit., p. 80; cf. also, Phillips, op. cit., p. 250.

الصليبية أمام خطر نور الدين محمود الذى سطع نجمه بالفعل بعدما ضم إليه مدينة دمشق وأصبحت لديه من القوة ما يمكنه من تهديد الكيان الصليبى تهديدًا مباشرًا.

هكذا يتضح لنا أن نشاط الأمير أندرونيقوس إبان فترة إقامته فى الشرق اللاتينى انصبت فى المقام الأول على النكاية لابن عمه الإمبراطور مانويل -الذى كان سببًا فى إبعاده عن وطنه كرهًا- عن طريق تلك العلاقات الآثمة التى أقامها مع ذوى قرباه من الأميرات البيزنطيات سواء فى أنطاكية أو فى مملكة بيت المقدس.

لم تعد مملكة بيت المقدس إذًا الملاذ المناسب الذى يأمن أندرونيقوس فيه على حياته ومستقبله، فكان لزامًا عليه أن يلتمس هذا اللجوء لدى القوى الإسلامية المجاورة فتوجه بناظريه صوب دمشق حيث الملك نور الدين محمود الذى أكرم وفادته وأحسن نُزُله [٥٤] .

هذا ولم تمدنا المصادر المتاحة بمعلومات توضح لنا ما قام به أندرونيقوس من أعمال إبان إقامته بدمشق ولا المدة التى قضاها هناك. ويبدو أنه قد خشى على نفسه من ملاحقة الإمبراطور مانويل. فأخذ يجوب بلاط أمراء الشرق مع الأميرة ثيودورا حتى انتهى بهما المطاف إلى قلج أرسلان الثانى سلطان قونية ١١٥٦ - ١١٨٨م/ ٥٥١ - ٥٨٤هـ الذى سمح له بالإقامة فى بلاده واتخاذها قاعدة لشن الغارات على حدود الدولة البيزنطية [٥٥] ، مما سبب إزعاجًا كبيرًا للإمبراطور مانويل الذى لم يدخر وسعًا فى الإيقاع به والقبض عليه، ونجح فى النهاية فى إجباره على القدوم إلى القسطنطينية والمثول بين يديه طالبًا الصفح والغفران وذلك فى يوليو ١١٨٠ م/ ربيع أول ٥٧٦ هـ [٥٦] منهيًا بذلك فترة لجوئه التى امتدت

---

(54) Niketas, op. cit., p. 81; cf. also, phillips, loc. cit.,

(55) Kinnamos, op. cit., p. 188; Niketas, loc. cit.,

[٥٦] لعل من أهم الأسباب التى دفعت أندرونيقوس إلى العودة إلى القسنطينية والتماس عفو الإمبراطور مانويل هو نجاح الأخير فى القبض على ثيودورا وأولاده، ورغم =

قرابة أربعة عشر عامًا ١١٦٦ - ١١٨٠ م/ ٥٦١ - ٥٧٦ هـ.

أما إذا انتقلنا إلى الحديث عن لجوء الماركيز كونراد أوف منتفرات Conrad marquis of Montferrat [٥٧] إلى الشرق اللاتينى، فالثابت أن شقيقه بونيفاس Boniface [٥٨] كان قد أرسل إلى الإمبراطور البيزنطى إسحق الثانى إنجيلوس Isaakois II Angelos(١١٨٥ - ١١٩٥م / ٥٨١ - ٥٩١ هـ) يعرض عليه مصاهرته فوافق الإمبراطور على العرض وأرسل إليه سفاره لإتمام زواجه من شقيقته ثيودورا Theodora، وكانت المفاجأة أن وجد المبعوثون البيزنطيون لدى وصولهم الأمير بونيفاس يحتفل بمراسم زواجه فسقط فى أيديهم ولكن خفف من وطأة الموقف عرض الماركيز كونراد -الذى توفيت زوجته حديثًا- على المبعوثين زواجه من شقيقة الإمبراطور فرحبوا بالفكرة ورافقهم لدى

=عفو الإمبراطور عن أندرونيقوس، إلا أنه لم يبقه معه فى القسنطينية، بل منحه حكم إقليم بونطس على البحر الأسود. عن ذلك انظر:

Ibid., p. 128; William of Tyre, op. cit., Vol. 2, p. 463.

[٥٧] هو الابن الثانى لوليم أوف مونتفرات Montferrat William of أصبح ماركيزًا بعد موت شقيقه الأكبر وليم ولعب دورًا كبيرًا فى الحروب الصليبية ولقى حتفه على أيدى الباطنية فى مدينة صور. عن ذلك انظر:

Niketas, op. cit., pp. 114, 217; Ambroise, The Crusade of Richard Lion- Heart, Tr. M. Jerome, Columbia University press, 1941, p. 21.

انظر أيضًا:

روبرت كلارى: فتح القسنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشى، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، ١٩٦٤م، ص٦٨؛ راجع أيضًا:

سهيل ذكار: حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس، دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٤، ص١٧٠.

[٥٨] هو الابن الرابع لوليم أوف مونتفرات قاد الحملة الصليبية الرابعة ضد القسنطينية عن ذلك انظر:

فيلهاردوين: فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشى، جدة، ١٩٨٢، ص٦١.

عـــودتهم إلـــى القســـطنطينية حـــيث تمـــت مراســـم الـــزواج فـــى إبـــريل ١١٨٧م / صفر ٥٨٣هـ [٥٩] .

ولم يمض وقت طويل على زواج كونراد حتى اندلعت ثورة كبيرة يتزعمها القائد إلكسيوس براناس Alexios Branas للإطاحة بالإمبراطور إسحق إنجيلوس. وقد بلغت هذه الثورة من خطورتها أن عجز الإمبراطور عن مواجهتها واكتفى بالتحصن خلف أسوار العاصمة وذلك فى مايو ١١٨٧ م/ ربيع أول ٥٨٣ هـ [٦٠] وهذا دليل واضح على مدى ما اعترى الإمبراطورية البيزنطية من ضعف، غير أن الماركيز كونراد -الذى هاله عجز الإمبراطور ووهنه- عرض على صهره الاضطلاع بمهمة التصدى لتلك الثورة، ونجح بالفعل فى القضاء عليها والإطاحة برأس قائدها ألكسيوس براناس التى قدمها هدية لصهره فشكر له جميله وحسن صنيعه [٦١] .

ما كاد الإمبراطور إسحق إنجيلوس يفرغ من ثورة ألكسيوس براناس حتى انقلب على الماركيز كونراد محاولاً التخلص منه؛ ربما لسطوع نجمه ونيوع صيته بعد نجاحه فى القضاء على ثورة براناس أو لخشية الإمبراطور على نفسه من بقائه معه فى القسطنطينية؛ لذلك اخذ يحيك المؤامرات ضده، غير أن أنباء تلك المؤامرة

---

(59) Niketas, op. cit., p. 210.

انظر أيضًا: سهيل زكار: المرجع السابق، ص١٧٠.

(٦٠) يعتبر ألكسيوس براناس واحدًا من القادة البيزنطيين العظام الذين أحرزوا انتصارات باهرة على النورمان لكنه لم يلق التكريم المناسب من قبل الإمبراطور إسحق إنجيلوس، فتمرد عليه منتهزًا فرصة عجزه عن الإمساك بزمام الأمور فى الإمبراطورية وأعلن الثورة ضده وحاصره فى القسطنطينية. ولمزيد من التفاصيل عن تمرد براناس انظر:

Niketas, op. cit., pp. 207- 9.

انظر أيضًا: روبرت كلارى: المصدر السابق، ص٦٨- ٦٩.

(61) Niketas, op. cit., pp. 210- 11.

تسربت إلى كونراد الذى خشى على نفسه من البقاء فى القسطنطينية فاضطر إلى مغادرتها فى جنح الظلام ميممًا وجهه صوب مملكة بيت المقدس الصليبية [٦٢] .

ولعل سلوك الإمبراطور إسحق إنجيلوس حيال الماركيز كونراد يعتبر أمرًا يثير الدهشة ؛ إذ كيف يُتصور أن يكون جزاء من قدم المعروف وأنقذ البلاد من الخطر التآمر ضده ومحاولة القضاء عليه، ولكن تتلاشى هذه الدهشة عندما نعلم أن هذا السلوك لم يكن يتسم به الإمبراطور إسحق وحده، بل كان هو السمة المميزة لأباطرة الدولة البيزنطية بصفة عامة تقريبًا، فالمكر والدهاء والتلون كالحرباء والترغيب والترهيب كلها وسائل اعتاد عليها الأباطرة البيزنطيون فى سياساتهم الميكيافيلية حيال خصومهم وإن كانوا أقرب الناس إليهم.

لا غرو أن تسلل كونراد لواذًا من القسطنطينية ولجوءه إلى مملكة بيت المقدس، يرجع فى المقام الأول إلى عدم شعوره بالأمن وخوفه على حياته، فلم تجد نفعًا مصاهرته للإمبراطور أو حتى تضحيته بنفسه وتصديه لثورة براناس التى كان من الممكن أن يفقد فيها حياته، خاصة إذا علمنا أن الإمبراطور قام بغلق أبواب العاصمة خلف كونراد بعدما خرج للتصدى للثورة. ولم تفتح تلك الأبواب إلا عندما تيقن الإمبراطور من نجاح كونراد فى القضاء عليها.

غادر كونراد ميناء القسطنطينية فى مركبين كبيرين بما استطاع حمله من أموال وما أمكن جمعه من فرسان وتوجه صوب مدينة عكا ظنًا منه أن الأمور لا تزال على حالها بالمملكة الصليبية. ولم يدر أن صلاح الدين نجح فى استرداد كل مدن المملكة الصليبية -التى جلا عنها أهلها إلى مدينة صور- بعد انتصاره الحاسم على الصليبين فى حطين ١١٨٧ م/ ٥٨٣هـ. وما كاد يصل إلى ميناء عكا حتى ارتاب فى الأمر فرحل من فوره إلى مدينة صور التى كانت فى طريقها إلى الاستسلام لصلاح الدين، وبمجرد نزوله إلى المدينة التف الناس من حوله، وطالبوه

---

[٦٢] روبرت كلارى: المصدر السابق، ص٧٠- ٧١.

بتولى تصريف شئونها والدفاع عنها ضد خطر صلاح الدين؛ فانقلبت الموازين رأسًا على عقب، فبدلاً من مناشدة كونراد الصليبيين السماح له باللجوء إليهم ناشدوه هم بضرورة البقاء معهم وتصريف شئون صور إبان تلك الفترة الحرجة من تاريخ المملكة الصليبية. ولم ينجح كونراد فى إنقاذ مدينة صور فحسب، بل نجح أيضًا فى إنقاذ بقاء المملكة الصليبية (٦٣) .

أما فيما يتعلق بالفترة التى أقام فيها كونراد فى الشرق اللاتينى ١١٨٧ - ١١٩٢م / ٥٨٣ - ٥٨٨ هـ، فلم يتمتع فيها بالهدوء والأمن الذى كان ينشده من لجوئه، بل اتسمت تلك الفترة بالاضطرابات والمنازعات؛ إذ احتدم النزاع بينه وبين جى دى لوزينيان Guy de Lusignan(١١٨٦ - ١١٩٢م / ٥٨٢ - ٥٨٨ هـ) ملك بيت المقدس الاسمى -بعد إطلاق صلاح الدين سراحه- حول وراثة عرش مملكة بيت المقدس. وقد اتسعت دائرة هذا النزاع حتى شملت ملوكًا وأمراء وجماعات رهبانية عسكرية وكذلك الجاليات الإيطالية التجارية، مما وضع الصليبيين على شفا جُرفٍ هارٍ كاد أن يهوى بهم جميعًا فى غياهب المجهول.

وعلى الرغم من نجاح كونراد فى الحصول على تأييد معظم أمراء الصليبيين على ترشيحه ملكًا عليهم وموافقة ريتشارد قلب الأسد Richard Lion

---

(٦٣) لمزيد من التفاصيل عن كيفية مغادرة كونراد القسطنطينية ووصوله إلى صور وتولى أمرها راجع:

ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين)، تحقيق جمال الدين الشيال، الإسكندرية ١٩٦٤، ص١٣٦.

انظر أيضًا:

Eracles, L'Estoire d'Eracles Empereur et de Conquest de la Terre d'Outre mer, ed. (R.H.C; H. Occ.,) T. II., Paris, 1859, pp. 1- 481, p. 74- 78; Ernoul, Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier, ed. M.L.de Mas Latrie, Paris, 1871, pp. 179- 83; cf. also, p. M. Holt, The Age of Crusade, The near east from the eleventh to 1517, Longman, 1986, p. 58- 59; W. Edbury, The Conquest of Jerusalem and the Third Crusade, Ashgate, U.S.A., 1998, pp. 295.

Heart ملك إنجلترا (١١٨٩ - ١١٩٩م / ٥٨٥ - ٥٩٥هـ) فى نهاية الأمر على ذلك حسمًا للنزاع، فإن كونراد لم يهنأ بذلك الأمر، فسرعان ما لقى حتفه على أيدى الباطنية فى مدينة صور فى إبريل ١١٩٢م/ ربيع الآخر ٥٨٨ هـ قبل أن يضع التاج على مفرق رأسه [٦٤] ليصبح كونراد اللاجئ السياسى الوحيد الذى لقى حتفه أثناء فترة لجوئه إلى الشرق اللاتينى.

هذا ولم يقتصر اللجوء السياسى فى الشرق اللاتينى على الرجال فحسب، بل شاركتهم النساء ذلك الأمر أيضًا. وتُعد الأميرة جوليانا جارنييه Guliana Grenier سيدة قيسارية ١١٩٣ - ١٢١٣م / ٥٨٩ - ٦١٠هـ نموذجًا واقعيًا لذلك [٦٥] ؛ فالثابت أن صلاح الدين نجح فى ١١٨٧م / ٥٨٣ هـ فى استرداد

---

[٦٤] انقسم الصليبيون فى النزاع بين كونراد وجى إلى قسمين، ففى حين أيد جى كل من الملك ريتشارد والبيازنة والداوية، أيد كونراد كل من فيليب أغسطس ملك فرنسا والجنوية ومعظم أمراء المملكة. ولمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع راجع:

ابن شداد: المصدر السابق ص٩٨، ١٣٦، ١٦١؛ العماد الكاتب: الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق وشرح وتقديم محمد محمود صبح، القاهرة ١٩٦٥م، ص٨٩، ٤٩٤، ٥٢٦- ٢٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٥٣م، ص٢٨٤، ٢٨٨، ٣٥٩- ٦٠.

راجع أيضًا:

Ambroise, op. cit., passim; Eracles, op. cit., T. II, Passim; Ernoule, op. cit., pp. ٢٥٦- ٧, ٢٦٧- ٨.

ولمزيد من التفاصيل عن أعمال كونراد فى الشرق ومقتله راجع:

إبراهيم خميس: الصراع على عرش مملكة بيت المقدس ومقتل كونراد دى مونتفرات ١١٨٨- ١١٩٢م/ ٥٨٤- ٥٨٨هـ، "دراسات فى تاريخ مصر البيزنطية"، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٦٦، ص٦٣- ٨١.

Cf. also, Louise and Jonathan Riley- smith, The Crusades Idea and Reality 1095- 1274, Edward Arnold, London, 1981, p. 21.

[٦٥] تعد الأميرة جوليانا إحدى أميرات أسرة جارنييه التى منحها بلدوين حكم إقطاعية قيسارية ١١١٠م/ ٥٠٣هـ والجدير بالذكر أن الأميرة جوليانا تزوجت مرتين الأولى من جى سيد بيروت Gye of beirut والثانية من إيمار دى لايرون Aymar de Loiron=

قيسارية من أيدى أميرها جوتييه الثانى Gautier II ١١٨٢ - ١١٨٧ م/ ٥٧٨ - ٥٨٣ هـ الذى لجأ إلى مدينة صور وأقام بها إلى أن جاءت الحملة الصليبية الثالثة فشارك فى حصار مدينة عكا، ولكنه قضى نحبه هناك (٦٦) .

وعندما نجح ريتشارد قلب الأسد فى استرداد قيسارية من أيدى المسلمين فى ٣١ أغسطس ١١٩١ م/ ٨ شعبان ٥٨٧ هـ منحها للأمير جودفرى دى لوزينيان Godfrey de Lusignan شقيق جى Guy ملك بيت المقدس مخالفًا بذلك قانون الوراثة المعمول به فى المملكة؛ إذ كان ينبغى على الملك ريتشارد أن يُسلم قيسارية إلى الأميرة جوليانا بدلاً من الأمير جودفرى؛ حيث أنها الوريثة الشرعية للإقطاعية بعد وفاة شقيقها جوتييه الثانى الذى لم يكن له وريثًا ذكرًا يخلفه (٦٧) . ولعل الملك ريتشارد رأى أن الظروف السياسية الراهنة لا تحتمل وجود سيدة على رأس الحكم، إذ لا تزال المعارك الضارية تدور رحاها بينه وبين صلاح الدين، ولم

=بعد استعادتها لقيسارية ١١٩٣م/ ٥٨٨هـ. ولمزيد من التفاصيل راجع:

Du Cange, op. cit., p. 279; cf. also, La Monte, The Lords of Caesarea in the Period of the Crusades, in speculum, vol. xxll, Cambridge, 1974, p. 152;

انظر أيضًا: حسن عبد الوهاب: تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، دار المعرفة الجامعية، إسكندرية ١٩٩٠، ص٧٦؛ أسامة زكى زيد: صيدا ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى، الإسكندرية، ١٩٨١م، ص١٣٤.

(66) Du Cange, Loc. cit.,

ترجح بعض المراجع الغربية وفاة جوتييه الثانى فى الفترة ما بين يوليو ١١٨٩ ويوليو ١١٩١، عن ذلك انظر:

Tibble, Op. Cit., P. 118.

(67) Ambroise, op. cit., p. 486.

ولمزيد من التفاصيل عن قوانين الوراثة ومشكلاتها فى بيت المقدس راجع:

عبد الحفيظ محمد على: مشكلات الوراثة فى مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية ١١٣١-١١٨٧ م، دار النهضة العربية للنشر والطبع، القاهرة، ١٩٨٤، ص٧- ١٤.

تضع الحرب أوزارها بعد، وليس بوسع جوليانا خوض غمار المعارك الحربية والتصدى لصلاح الدين؛ لذلك آثر إسناد حكم قيسارية إلى الأمير جودفرى بدلاً منها لحاجة الإقطاعية الماسة لرجل يتولى حكمها وقيادتها فى تلك الفترة العصيبة.

لا جرم أن ما قام به الملك ريتشارد مهمًا كان مُبررًا يُعد انتهاكًا لقوانين الوراثة فى المملكة الصليبية، ولا شك أنه أثار حنق الأميرة جوليانا وغضبها مما دفعها إلى اللجوء إلى صلاح الدين طالبة حمايتها ومساعدتها فى استعادة إرثها. وقد رحب صلاح الدين بهذا اللجوء واعتبره فرصة لتعميق الخلافات بين الصليبيين بعضهم بعضًا. ومما يؤسف له حقًا أن المصادر المتاحة لم تمدنا بمعلومات توضح لنا أعمال الأميرة جوليانا إبان الفترة التى لجأت فيها للمسلمين - التى لا تقل بحال من الأحوال عن عام بأكمله- واكتفت بالإشارة إلى نجاح صلاح الدين فى إعادتها إلى حكم قيسارية، ولعل ذلك تم أثناء المفاوضات التى جرت بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد وانتهت بصلح الرملة سبتمبر ١١٩٢م / شعبان ٥٨٨ هـ، وبذلك استعادت جوليانا حقها وعادت ثانية لحكم إقطاعيتها [٦٨] .

ومن العرض السابق يمكننا القول أن مصطلح "اللجوء السياسى" رغم أنه يبدو حديثًا نسبيًا فإن مدلولاته تنطبق تمامًا على هذا النوع من اللجوء إبان الفترة موضوع الدراسة. وقد تركز فى الأغلب فى مملكة بيت المقدس دون غيرها من الإمارات الصليبية، ولعل هذا أمر طبيعى نظرًا لأن المملكة تُعد الأكبر والأقوى فى المنطقة التى بوسعها توفير الملجأ والحماية للاجئين السياسيين لما تتمتع به من نفوذ وقوة مقارنة بغيرها من الإمارات الصليبية. كما يمكننا القول أن دوافع اللجوء السياسى التى أوضحتها هذه الدراسة تكاد تكون هى نفسها فى عالمنا المعاصر.

---

(68) Eracles, Op. Cit., T. II, P. 138.

بيان بالمختصرات الواردة بالبحث

A.S.C.	: Anonymous Syriac Chronicle.
C.M.H.	: Cambriadge Medieval History.
R. C.	: Recueil De Cours.
R. H.C., Doc. Arm.,	: Recueil des Historiens des Croisades, Documents Armeniens.
R. H.C., H. Occ.,	: Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً- المصادر الأجنبية

- **Albert d'Aix,**

Historia Hierosolymitana, e.d.R.H.C., H.occ, Tomeiv, Paris, 18. pp. 265- 713.

- **Ambroise,**

The Crusade of Richard Lion- Hert, Tr. M. Jerom, Columbia university press, 1941.

- **A.S.C,**

The First and the Second Crusades, ed. and Tr. by A.S. Tritton. The Journal of the Royal Asiatic Society.

- **Du Cange,**

Les Familles d'Outre- Mer, Publiées par G. Rey, Paris, 1869.

- **Eracles,**

Estoire d'Eracls, Empereur et la Conqueste de La terre d'Outre-Mer, ed. R.H.C., H. Occ., T. II, Paris, 1859, pp. 1- 481.

- **Ernoul,**

Clronique d'Ernoul, et. de Bernard le Trésorier, ed. M. L. de Mas latrie, Paris, 1871, pp. 179- 83.

- **Fulcher of Chartres,**

A History of the Expedition to Jerusalem, Tr. by frances Rita Ryan, Edited with an introduction by Harold's Fink, Knuville, U. S. A, 1969.

- **Gregiore Le Pretre,**

Chronique de Qregoire le Pretre, cf. R.H.C., Doc Arm, T. I. p. 151- 201.

- Guibert de Nogent.

Historia quaedicitur Gesta Deiper france, ed. R.H.C., H. Occ., Tome IV, Paris, 1879, pp. 113- 263.

- Kinnamos,

Deeds of Jhon and Manuel Comnenus, Tr. Charles M. Brand, New York, 1976.

- Matthieu d' Edesse,

Extraits de la Chronique de Matthieu d'Edesse, Ed. R.H.C., Doc. Arm, T. 1, Paris, 1869, pp. 1- 150.

- Niketas,

Ocity of Byzantium, Tr. Harry J. Magoulias, Wayne state University Press, Detroit, 1984.

- William of tyre,

A History of Deeds Done Beyoned the Sea., Tr. by Bab Cock qand Krey, 2 Vols., New York, 1943.

ثانيًا- المصادر العربية والمعربة

١- ابن الأثير: (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م) أبو الحسن بن أبى الكرم الملقب عز الدين: الكامل فى التاريخ، ١٢ج، دار صادر بيروت، ١٩٧٩م.

٢- ابن حوقل: (عاش فى القرن الرابع هـ/ القرن العاشر م) أبو القاسم محمد النصيبى: " صورة الأرض " ، مكتبة الحياة، بيروت ١٩٧٩م.

٣- ابن شداد: (ت ٦٣٢هـ/ ١٢٣٩ م) بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق جمال الدين الشيال، ط١، القاهرة ١٩٦٤م.

٤- ابن العديم: (ت ٦٦٠هـ/ ١٢٦٢م) كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله: زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ٣ج، تحقيق سامى الدهان، دمشق، ١٩٦٨م.

٥- ابن القلانسى: (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) أبو يعلى حمزة بن أسد بن على ابن محمد: تاريخ أبى يعلى حمزة بن القلانسى، المعروف بذيل تاريخ دمشق، بيروت، ١٩٠٨م.

٦- ابن منظور: لسان العرب، ج٥، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧م.

٧- ابن واصل: (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٨٩م) جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سليم: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ج٢، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة، ١٩٥٣م.

٨- روبرت كلارى: فتح القسطنطينية على يد الصليبين، ترجمة حسن حبشى، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، ١٩٦٤م.

٩- العماد الأصفهانى: (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠١م) عماد الدين محمد بن محمد ابن حامد: الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق محمد محمود صبح، القاهرة، ١٩٦٥م.

١٠- فلهاردوين: فتح القسطنطينية، ترجمة حسن حبشى، جدة، ١٩٨٢م.

١١- القزوينى: (ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) زكريا بن محمد بن محمود: أثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ.

١٢- القلقشندى: (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م) أبو العباس أحمد بن على بن أحمد عبد الله) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ١٤ج، القاهرى ١٩١٣- ١٩٢٠.

ثالثًا- المراجع العربية والمعربة

١- إبراهيم خمّيس:

الصراع على عرش مملكة بين المقدس ومقتل كونراد دى مونتفرات (١١٨٨-١١٩٢م/ ٥٨٤- ٥٨٨هـ)، "دراسات فى تاريخ مصر البيزنطية" ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٦م، ص٦٣- ٨١.

٢- أسامة زيد:

صيدا ودورها فى الصراع الصليبى. الإسلامى. الإسكندرية، ١٩٨١م.

٣- حازم حسن جمعة :

مفهوم اللاجئين فى المعاهدات الدولية والإقليمية "الحماية الدولية للاجئين"، مطبعة مركز حقوق الإنسان، القاهرة، ١٩٩٧م ، ص١٥- ٣٢.

٤- حسن حبشى :

نور الدين و. الصليبيون، دار الفكر العربى، الإسكندرية ١٩٤٨م.

٥- حسن عبد الوهاب:

تاريخ قيسارية الشام فى العصر الإسلامى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٠م.

٦- حمدى الغنيمى:

الملجأ فى القانون الدولى، "رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، كلية الحقوق، جامعة الإسكندرية، ١٩٧٦م.

٧- سعيد عاشور:

الحركة الصليبية، ٢ج، القاهرة، ١٩٨٢م.

٨- سهيل ذكار:

حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس، دار حسان للطباعة والنشر، ١٩٨٤م.

٩- عبد الحفيظ محمد على:

مشكلات الوراثة فى مملكة بيت المقدس وأثرها على تاريخ الحركة الصليبية ١١٣١- ١١٨٧م/ دار النهضة العربية للطبع والنشر، القاهرة ١٩٨٤م.

١٠- علية الجنزورى:

إمارة الرها الصليبية، القاهرة ١٩٧٥م.

١١- محمد الشيخ:

الجهاد المقدس ضد الصليبين حتى سقوط الرها، دار الثغر، الإسكندرية، ١٩٧٢م.

١٢- محمد الغنيمى:

الغنيمى الوسيط فى قانون السلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢م.

١٣- محمد شوقى عبد العال:

حقوق اللاجىء طبقًا لمواثيق الأمم المتحدة، "الحماية الدولية للاجئين"، مطبعة مركز حقوق الإنسان، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٣- ٩٠.

١٤- محمد فتحى الشاعر:

أحوال المسلمين فى مملكة بيت المقدس الصليبية ١٠٩٩- ١١٨٧م/ ٤٩٢- ٥٨٣ هـ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م.

١٥- محمد فرحات:

بيروت ودورها فى الصراع الصليبى الإسلامى ١١١٠- ١٢٩١م/ ٥٠٣- ٦٩٠ هـ، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد، الإسكندرية، ١٩٩٤م.

رابعًا- المراجع الأجنبية :

- Budislav Vukas, International Instruments Dealing with The Stalus of Stateless, Persons and Refugees, (Revue Belge de Droit International), Vol. 8, No. 1, 1972, pp. 146- 148.

- P.W. Edburye,

The Conqust of Jersalem and The Third Crusade, Ashgate, U.S.A. 1998.

- S. Emmanuel, Refugiés syro- palestinines au - temps des Croisades in (Revue des études Islamiques, xxxv) Paris, 1967.

- P. M. Holt,

The Age of the Crusade, The near east from the Eleventh to 1517, Longman, 1986.

- Hussey,

The Later mocedonians, The Comneni and Angeli 1025 - 1204, ed. (C.M.H.), Vol. IV, Part, 1, Cambridge, 1976, pp. 193 - 259.

- La Monte,

- J. L. feudel Monarchy in the Latin Kingdom, New York, 1970.

- The Lords of Casarea in the period of the Crusades in (Speculum, Vol. xx II), Cambridge, 1947.

- R. Lilie,

Byzantium and the Crusader States 1096- 1204, J. Morris and J. Ridings, Clarendon press, Oxford, 1993.

- Louis and Jomathan Riley- Smith,

The Crusades, Idea and Reality, 1095- 1274, Edward Arnold, London, 1981.

- J. Phillips,

Defenders of the Holy land, Relations Between The Latin East and The west, 1119- 1187, Clarendon press, Oxford, 1996.

- Sadruddin Aga Khan, Legal Problems Relating to Refugees and Displaced persons, (Recueils Des Cours, Vol. 149), 1976.

- Tibble,

Monarchy and Lordships in the latin Kingdom of Jerusalem, 1099- 1291, Clarendon press, Oxford, 1989.

- G. Van Heuven,

The Problem of Refugees, Recuéils Des cours, vol, 1, 1953.